

بدعة المحاريب

نشر هذا البحث القيم غير محتلين شيئاً من تبعاته
الفنية والتاريخية والدينية أيضاً . ونفتقد أن المختصين
خليقون بأن يتقبوه بالتقد والتحيص . [

١

تحتفظ دار الكتب المصرية ، فيما تحتفظ به من نفائس الكتب والآثار ،
بمخطوط غريب أسماه مؤلفه « كتاب إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب » .
والكتيب أو الرسالة وريقات معدودات ، كتبها ناقلها بخط حسن مقروء ،
وأدخلها في مجموعة من الرسائل المنسوبة إلى عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين
السيوطي ، صاحب « تاريخ الخلفاء » ، و« تفسير الجلالين » ، و« حسن المحاضرة في
تاريخ مصر والقاهرة » . وهي مصنفات شهيرة لعالم جليل ، ومؤرخ واسع الاطلاع .
كان مولده بمصر سنة تسع وأربعين وثمانمائة (١٤٤٥) ، وكانت وفاته سنة
إحدى عشرة وتسعمائة (١٥٠٥) . وقد يسر علينا السيوطي نفسه سبيل البحث
عنه ، والتفتيش عن أعماله ، فأورد في كتابه « حسن المحاضرة » كشفاً بمصنفاته ،
وذكر لنا أنها بلغت ثلاثمائة كتاب « سوى ما غسله ورجع عنه » ، وأنه كتب في
فنون التفسير والفقه والحديث وتعلقاتها ، وفي فنون العربية والأصول والبيان
والتصوف والتاريخ والأدب ، وأنه كتب إلى هذا في « مسائل مخصوصة » منها
رسالة في « تحريم الاشتغال بالمنطق » ، وأخرى عنوانها « أعمودج اللبيب إلى
خصائص الحبيب » ، وثالثة في « فصل الخطاب في قتل الكلاب » . ولم يذكر
لنا السيوطي أنه كتب رسالة بالعنوان الذي يحمله مخطوط دار الكتب ، أو
أنه شغل بموضوع المحاريب مثل ما شغل بتحريم المنطق ، عملاً بفتوة سمعها
من ابن الصلاح . ولهذا فإني أشك في صحة انتساب هذه الرسالة إليه بالرغم

بما انطبع فيها من مظاهر أسلوبه وتفكيره ، غير أنى سأتمهل في الرفض وأنظر في موضوعها .

الرسالة بحث في موضوع حديث يُعزى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وللحديث ، كما نقله السيوطي ، نصان : النص الأول « اتقوا هذه المذابح » ، والنص الآخر « لا تزال هذه الأمة — أو قال أمتي — بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح كذاب النصارى » . وحاول السيوطي جهده أن يثبت صحة سند هذا الحديث ، ونقل في ذلك أحاديث أخرى عن قوم من الأوائل ، قال البعض فيها إنه لم يكن بمسجد المدينة محراب قط على عهد الرسول ، ولا في زمان الخلفاء الأربعة ، وأورد البعض الآخر أن المحارب من شأن الكنائس ، وأن اتخاذها في المساجد من أشراط الساعة ، وأخرج أحدهم عن علي بن أبي طالب أنه كره الصلاة في « الطاق » . وأجمعوا كلهم على ذكر « المذابح » ، وهم في ذلك يقصدون « ما أخرجه عبد الرازق في (المصنف) عن كعب قال : يكون في آخر الزمان قوم يزينون مساجد ، ويتخذون مذابح كذاب النصارى ، فان فعلوا ذلك صب عليهم البلاء » .

حديث السيوطي ينصب إذن على المذابح ، لا على المحارب ، أو إنه فسر هذه بتلك ، وجعل منها عنوان رسالته . وفي الأحاديث علماء ، ولست أشك في أنهم لا يترددون في إسقاط حديث السيوطي ، معنى وتركيباً وسنداً . والذي أجزم به ، على كل حال ، هو أن رسالة السيوطي مرفوضة علماً ، مستنكرة تاريخاً حتى لو كانت مخطوطة بيده . إذ لا يستطيع المؤرخ ، مهما بلغت حماسته في الرأي أو مقدرته على الاستنباط أن يعترف برواية نقلها الراوي بعد تسعة قرون طويلة من تاريخ حدوثها ، مهما أضنى عليها راويها من صحة المظهر واستقامة المعنى . وماذا تقول في راو يطلع علينا اليوم ، من غير مرجع أو سند صحيح بحديث مبتكر عن المستنصر البيهقي خليفة الفاطميين في مصر ، أو بقصة مطوية عن القائم بأمر الله ، خليفة العباسيين في بغداد ، أو برواية منسوبة إلى السلطان ملكشاه السلجوقي ، وكانوا جميعاً أحياء منذ تسعمائة سنة ؟

والأمر شبيه بهذا في حديث السيوطي ؛ فانه لم يأت بذكره راو من رواة الأحاديث ، ولم ينقله قبله مؤرخ من مؤرخي الإسلام . وإذا كان العلماء

يرمون بالشك أحاديث كثيرة من أحاديث البخارى ، مع ما نعرفه عنه من دقة البحث ، وقرب العهد ، نسبياً ، بالرسول — إذ عاش بعده بمائتي سنة — أليس حديث السيوطى أولى بالشك وأبعد عن التصديق ؟

والذى ذكره رواة الأحاديث وعلماء الفقه قبل السيوطى لا ينصب على المحارب ، فلم يتعرضوا لها بخير ولا بشر ، وإنما كرهوا زينتها ، حتى لا يشغل الإمام بها عن الصلاة . فقد ذكر ابن الحج في « المدخل » نهياً عن زخرفة المحراب ، وقال إن ذلك من البدع ومن « أشراط الساعة » ، ونقل عن الطرطوشى عن الإمام مالك أنه كره ما كانوا يعلقونه من خرق كسوة الكعبة فى المحراب وغيره ، فإن ذلك كله من البدع « لأنه لم يكن من فعل من مضى » .

وذكر كثير من العلماء الذى سبقوا السيوطى ، أمثال الكاشانى ، وقاضى خان ، والزيلعى . والطرابلسى ، ما يدل على أن المحارب كانت شائعة فى مساجد الإسلام ، وأنه لم يكن هنالك من حظر فى بنائها ، أو نهى عن استعمالها . بل إنهم أجمعوا على ذكر محارب نصبها الصحابة فى القرى والأصهار التى فتحوها ، وإن كانوا لم يبينوا لنا أشكالها . إلا أنهم أوصوا باعتبارها دلائل لتعيين القبلة والتوجه فى الصلاة .

وبالرغم من هذا ، فقد تعلق كثير من المستشرقين وعلماء الآثار بحديث السيوطى ، وأولوه ثقتهم ، وقالوا معه ، أو على الأصح محتجين به ، إن المحراب بدعة ، وإنه من عمل الكنائس . أما الشق الأول مما ينادى به المستشرقون فيكاد الإجماع ينعقد عليه ، وحديث السيوطى لا يفتى فى ذلك قليلاً ولا كثيراً . وقد جاء فى رحلة ابن بطوطة أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان هو الذى صنع المحراب لمسجد المدينة ، وأضاف ابن بطوطة إلى ذلك أنه « قيل إن مروان هو أول من بنى المحراب ، وقيل عمر بن عبد العزيز فى خلافة الوليد » : غير أن المقدسى والسهودى ، وغيرهما من المؤرخين ، قالوا إنه لما تولى عمر بن عبد العزيز بناء مسجد المدينة « وبلغ هدم المحراب دعا بمشايخ المهاجرين والأَنْصار فقال احضروا بنيان قبلكم ، لا تقولوا غيرهما ، فجعل لا ينزع حجراً إلا وضع مكانه حجراً » . وفى هذا بعض الدلالة على أنه كان بالمسجد محراب قبل ذلك . ويقول السهودى فى وصفه الشامل وتحليله الدقيق لمسجد المدينة فى كتابه « خلاصة

الوفى» إنه كان بجدار القبلة «إزار رخام مخلق بمخلق ، فيه الوتد الذى كان صلى الله عليه وسلم يتوكأ عليه فى المحراب الأول» . فكأنه يدلنا على أنه كان بمسجد المدينة محراب على حياة الرسول . أما فى غير هذا المسجد ، فقد ذكر السكندى وابن عبد الحكم وغيرهما من المؤرخين القدماء أنه «لم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف وإنما قررة بن شريك جعل المحراب المجوف» . وقررة بن شريك ولى إمرة مصر بين ربيع الأول سنة تسعين (يناير ٧٠٩) وربيع الأول سنة ست وتسعين (ديسمبر ٧١٤) ، وكان عمر بن عبد العزيز قبيل ذلك عاملاً على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك ، ولاء سنة ست وثمانين (٧٠٥) وعزله سنة ثلاث وتسعين (٧١١) . وقد أخذ العلماء برأى غالبية المؤرخين ، وأجمعوا على الحكم بأنه لم يكن لمسجد من مساجد الإسلام محراب مجوف قبل سنة سبع وثمانين للهجرة . غير أنى أرانى مضطراً إلى الخروج على هذا الإجماع ، فهناك أثر ثابت ، قد تحققت حديثاً من وجوده ، ولا سبيل إلى الطعن بعد اليوم فى صحته ، وهو يناقض هذا الرأى الأخير .

والواقع أن مؤرخى العرب لم ينكروا إطلاقاً وجود المحاريب قبل سنة سبع وثمانين فى غير مسجدى الرسول بالمدينة ومسجد عمرو بالقسطاط . بل إنا قد رأيناهم يترددون فيما يتصل بمسجد المدينة ، واختلف رأيهم فى محرابه ، فقال أحدهم : كان للرسول محراب فى ذلك المسجد ، وقال آخر إن عثمان هو أول من جعل له محراباً . ثم إنهم لم يتحدثوا عن المساجد الأولى فى الإسلام ، فلا نعرف من رواياتهم إذا كان المحراب قد أدخل فى بناء مساجد البصرة والكوفة وزمام ، ولكننا نعرف على كل حال أنه كان فى نظام مسجد القيروان ، وهو الذى أقامه عقبة بن نافع سنة خمسين (٦٧٠) .

حدثنا كثير من المؤرخين عن تاريخ بناء مسجد القيروان ، وذكروا كيف أن عقبة بن نافع بدأ ينشئ هذه البلدة بعد دخوله إفريقية ، وكيف اختط فيها دار العمارة والمسجد الأعظم . وذكروا أن الناس كانوا يصلون فى المسجد قبل أن يحدث فيه بناء ، وأن أمرهم اختلف فى القبلة . وقيل إن آتياً أتى عقبة فى منامه ، وأن صوتاً من عند الله أسمعه أين يضع محرابه من المسجد ، وتناقل الناس هذا الحديث إلى اليوم ، وإليه يرجع ما يحملونه من الإجلال للرجل

ومسجده . ذكر هذا جمهرة من المؤرخين من بينهم ابن عذاري والنويري وابن خلدون وابن حوقل والبكري . ولا شك أن ما نقله عبید الله البكري . هذا عن القيروان هو أصدق صورة وضعت عن تاريخ هذه المدينة ، وكتابه عن المغرب مشهور ، والثقة به عظيمة . وإن يكن وصفه للجامع غير شامل ، فهو وصف دقيق ، يسهل تحقيقه ومراجعته . وإن يكن البكري قد عاش في النصف الثاني للقرن الخامس الهجري ، فقد نقل كثيراً من أخباره عن أصدق مارواه المؤرخون السابقون ، وأكثرهم ثقة بالرواية . وقد أثبت البحث العالمي الحديث ، كما أثبتت المقارنة التاريخية ودل التحقيق الأثري ، على أنه لا مجال للشك فيما نقله البكري إلينا من تاريخ المغرب والقيروان .

يحدثنا البكري أن عقبة بن نافع أقام مسجده وأقام محرابه ، وأن حسان ابن النعمان هدم هذا المسجد وشيد عليه بناء جديداً ، وكان ذلك بين سنتي عمان وسبعين وثلاث وثمانين (٦٩٣ - ٦٩٧ م) ، ويحدثنا أن بشر بن صفوان زاد في هذا المسجد زيادة كبيرة سنة خمس ومائة (٧٢٤) ، وأن يزيد بن حاتم هدم المسجد مرة ثانية وبناه من جديد ، لما ولي إفريقية سنة خمس وحمسين ومائة (٧٧٢) . ويؤكد لنا البكري أن جميع هؤلاء الولاة والبناء لم يمسوا محراب عقبة ، وأنهم تركوه على ما كان عليه حتى كانت سنة إحدى وعشرين ومائتين (٨٣٦) . في تلك السنة ولي زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب إمرة إفريقية ، وهدم جامع القيروان كله ، ثم أراد أن يهدم المحراب فلم يجبه أحد إلى ما أراد . فأح في ذلك ، ولكنه حيل بينه وبين هدمه ، ويقول البكري ، منعه الناس من المساس بالمحراب « لما كان قد وضعه عقبة بن نافع ومن كان معه » . فقد كان هذا المحراب ، كما قرأنا ، موضع إجلال القوم وتقديسهم ، وكانوا إلى عهد زيادة الله ، مازالوا يتناقلون حديث الوحي الذي أبان لعقبة موقع محرابه من المسجد . ويروي البكري أن صائماً ذا حيلة من الصنائع ، تقدم بعدئذ إلى زيادة الله برأى يوفق بين رغبته في بناء محراب جديد ، وبين إجماع القوم على الاحتفاظ بمحراب عقبة ، وأن هذا الصانع صنع لأميره حلية من لوحات الرخام المنقوشة الخرم ، وألصق هذه اللوحات على جدار المحراب القديم ، فبدأ في ثوب بديع قشيب ، ولم يصب محراب عقبة بسوء .

بدعة المحارب

وقد كنا نستطيع أن نقنع بهذه الحجة ، فإن في رواية البكري هذه من الثقة والاستقامة ما يفتقر إليه حديث السيوطي ، وما يغنيننا عن استعادة الإيضاح . ولكننا نقند آراء معمارية ، فلندع العناصر المعمارية نفسها تحتاج وتتكلم ؛ لأن محراب عقبة هذا ما زال كما قال البكري منذ تسعمائة سنة ، قائماً « على بناءه إلى اليوم » . وإنا لنراه من بين خروم لوحات الرخام التي صنعها الصانع النبيه في عهد زيادة الله ، وكسا بها جدران ذلك المحراب المبجل .



محراب مسجد القيروان (سنة ٢٢١ هـ - ٨٣٦ م)

يرى الناظر خلال هذه الخروم أنها تخفى من ورائها جداراً مقوساً . على هيئة جوفة في جدار القبلة ، غير أن الفراغ الضيق الذي يلحجه الناظر من ثنايا

هذا الجدار يحول دون تبين شكله كاملا . ولهذا لم يشأ أحد من المشتغلين بالآثار أن يعترف بطبيعة هذا المحراب الجوف العميق ، وادعى أحدهم أن قيام هذا الجدار ، أو هذه الجوفة أمر طبيعي ، إذ أن لوحات الرخام المحرم تتطلب إيجاد فراغ من خلفها حتى تظهر نقوشها ، وقال إن هذا الاحتيال البسيط ، أدى إلى نشأة أسطورة المحراب ، وإلى اختلاق القوم لحديث محراب عقبة .



تفصيل من اللوحات الرخامية بمحراب مسجد القيروان

ولهذا لم أر بدا من العودة إلى القيروان ، وقت منذ ثمانية أعوام بدراسة هذا المحراب دراسة جديدة وافية . وقدم لي أصدقاؤى التونسيون معاونة جليلة أذكرها لهم هنا بالشكر والتقدير ، وقت بنقر جدار القبلة في المسجد في

مواضع مختلفة ، وأزلت طبقات الجير التي تكسوه في مواضع أخرى ، وتبين لي بصفة قاطعة أنه بنى من حجارة كبيرة منتظمة القطع ، تطابق في استطالتها وفي استوائها وفي حجمها وفي رصها نوع الحجارة التي بنيت منها مئذنة المسجد في الجزء الأوسط من برجها . وقد أجمع المؤرخون وعلماء الآثار على أن هذه المئذنة أقيمت سنة خمس ومائة ، أثناء ولاية بشر بن صفوان ، عامل الخليفة هشام بن عبد الملك .

أما جدار المحراب فكان أبعد منى مثالا ، وكانت عملية تحقيقه أدق سبيلا ، ولم يكن انتزاع لوحات الرخام بالأمر اليسير الهين ، فاكثفت بلوحتين متباعدتين وتحالينا على تزعمها من موضعيهما في حيطه بالغة وحذر شديد . فبدأ لنا جدار المحراب مكسوا بطبقة كثيفة من التراب ، قائمة اللون ، عطنة الرائحة ، وأسرعنا فنقرنا نقرات هينة وأزلنا بعضاً من الغلاف الجيري ، فتبين لنا أن حائط المحراب هذا قد صنع طرف فيه من قطع من حجارة منبمجة ، لا استواء فيها ولا اعتدال ، وأنه في طرف آخر ، قد رصت فيه قطع منتظمة من الآجر ، وأنه في بنيانه وفي مظهره وفي تكوينه لا يتصل بجدار القبلة طبيعة ولا زمنا .

لا شك في أن جوفة محراب القيروان أقيمت في غير السنة التي أقيم فيها جدار قبلته أيام بشر بن صفوان . ولا شك في أن هذه الجوفة شيدت في غير الوقت الذي أمر فيه زيادة الله ببناء المحراب الجديد ؛ فان عناصر بنائها تنفي القول بوحدهما الزمنية . وقد ذكر أبو عبيد الله البكري أن زيادة الله قد أولى محرابه وقتبه التي تليه كل عناية ، وأنه حرص على أن تكون موادها ثمينة وصناعتها بديعة ؛ والأمر عكس ذلك في بناء هذه الجوفة ، فهي غليظة المظهر والمنصر ، وهذا وحده يكفي للدلالة على أن هذه الجوفة لا تنتمي إلى عصر زيادة الله ، ولا بد أن تكون أقدم من ذلك عهداً .

وقيل إن هذه الجوفة شيدت خلف لوحات الرخام لتكون هذه لتلك ستاراً يزداد بها بيان نقوش اللوحات وضوحاً وإبداعاً . ولو أن الأمر كان كذلك لروعي أن يكون بناؤها منتظماً ، وأن يكون بينها وبين اللوحات فراغ فاصل متسع ، والحال على عكس ذلك أيضاً ؛ فسطح هذه الجوفة يقترب من لوحات الرخام حتى لميسها في مواضع عديدة ، فالنظر فيها لا يخرق خرومها ، والهواء

لا يبرح ولا ينفذ في فضاءها، وأنت ترى اللوحات لا تتدلى أمام هذه الجوفة في خفة ورشاقة، فهذه عائق لوضوح جمال تلك اللوحات، وليست وسيلة إلى إظهاره. ولا شك عندى في أن هذا الحائط الغليظ لم يشيد خصيصاً ليكون ستاراً لهذه المنسوجات الرخامية البديعة.

كان هذا الحائط قائماً، وكان هذه الجوفة مشيدة، فاضيفت إليها لوحات الرخام في عصر زيادة الله، وكان ذلك وسيلة لأحد البناء توصل بها إلى إرضاء رغبة الأمير، وإلى الإبقاء على اعتقادات قومه، فاحتفظ محراب عقبة، وقال لزيادة الله: «أنا أدخله بين حائطين ولا يظهر في الجامع أثر لغيرك.»

ولسنا نحتاج إلى حجة بعد هذا لدعم هذه الحقيقة، ولكنى أضيف إلى كل هذا حقيقة أخرى. ذلك أن القبلة، التي هي موضع المحراب، عنصر رئيسى من شكل المسجد وتخطيطه. فهذا الموضع يتحدد به اتجاه جدار القبلة ويجب أن يكون هذا الاتجاه عمودياً على خط يصل القبلة إلى مكة. وكان يرجى أن يكون هذا هو الواقع في مسجد القيروان، إلا أن اتجاه القبلة في هذا المسجد منحرف إلى الغرب بضع درجات. وقد أخطأ أصحاب عقبة في تحديد شرطها، إذ لم يكونوا قد بلغوا من العلم ما يؤهلهم لدقة تحديد الجهات. وقد ذكر المؤرخون أن هؤلاء الأصحاب اختلف أمرهم في القبلة، ولم يحسم خلافهم إلا ما أعلنهم عقبة به من أن صوتاً من عند الله عين له موضع المحراب. ولو أن تحديد هذه القبلة وتخطيط حائط المحراب يرجع عهداً إلى خلفاء عقبة في القيروان، لكان أولئك الخلفاء أكثر دقة في ذلك من أصحاب عقبة، وأشدّ تحقيقاً، ولما كانت القبلة على ما هي عليه اليوم من الانحراف عن شطر المسجد الحرام. ولو أن القوم لم يتناقلوا على تعاقب الأعوام قصة الوحي التي علقت بتاريخ قبلتهم، لتقوموا انحراف هذه القبلة وصححوا من موضعها، إلا أن هذا المحراب لم يمسه أحد من بعد عقبة بسوء، وظل إلى يومنا هذا محل الإجلال والإكبار.

وعلى هذه الأسس كلها نستطيع أن نقرر أولاً أن محراب عقبة كان مجوفاً، وما قبلته إلا هذه الجوفة التي كشفنا عنها من وراء لوحات الرخام والتي يراها الناس من خلال خرومه؛ فهذا المحراب باق منذ سنة خمسين للهجرة «على بنائه إلى اليوم». وعلى هذه الأسس نستطيع أن نقرر ثانياً أن محراب القيروان هذا،

فبما نعرفه ، أقدم محارب المساجد على الإطلاق . ونستطيع أن نقرر أخيراً ، أن ما نقله السيوطي من النهي عن المذابح ، لا ينصب على المحارب ، وأن المحراب لم يكن بدعة في المساجد . وسيتبقى علينا أن نبحث الشق الثاني من حديث السيوطي ، ذلك الذي يدعى فيه أن المحراب كان من شأن الكنائس .

٢

سبق لنا القول بأن علماء الآثار رضوا جميعاً بحديث السيوطي ، والواقع أنهم ذهبوا إلى أبعد مما ذهب الرجل إليه ؛ فجزموا بصحة روايته ، بالرغم من تشككه هو نفسه فيها ، وأقروا الرأي القائل بأشتقاق المحراب من مذابح الكنيسة . ولم تقتصر حججهم في ذلك على ما جاء بهذا الحديث ، فانهم يدركون أنه بمفرده لا يصلح أساساً لإقرار مثل هذه النظرية الخطيرة ، فالتجأوا إلى غيره من المؤرخين ، ونظروا في رواية ذكرها السهمودي عن أعمال عمر بن عبد العزيز بمسجد المدينة ، ولكنهم في هذا أيضاً لم يقدرُوا هذه الرواية على حقيقتها ، ونسوا أو تناسوا أن السهمودي أبعد عهداً بالرسول من السيوطي ، فانه توفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة وقيل إحدى عشرة وألف . والذي رواه السهمودي في « خلاصة الوفي » أن الوليد لما أراد أن يعمر مسجد الرسول كتب إلى ملك الروم ليرسل إليه عمالاً وفسيفساء ، فبعث إليه بأربعين من الروم ، وبأربعين من القبط ، وبأربعين ألف مثقال من ذهب وفسيفساء . ونقل السهمودي عن الواقدي أن عمل القبط كان بمقدم المسجد . واتخذ بعض المستشرقين هذه الرواية حجة للادعاء بأن الفضل في إحداث المحراب الجوف في مسجد المدينة يرجع إلى هؤلاء القبط دون غيرهم .

ولكن السهمودي لم يقل هذا ، فهو محض استنتاج . وكذلك ما ذكره السهمودي يحتمل الشك ، بل إن هذا الراوي نفسه يعترف بهذا الشك ، فهو يروي ثلاث روايات ، على أن إحداها صحيحة ، وقد تكون الرواية التي تمسك بها المستشرقون أشد هذه الروايات كلها مغالاة . فالرواية الأولى تقام السهمودي عن يحيى بن قدامة بن موسى ، وهي التي ذكرناها ، والرواية الثانية نقلها عن ابن زبالة ، وهي أن ملك الروم بعث إلى الوليد « بأحمال من فسيفساء وبضعة

وعشرين عاملاً ، ، والرواية الثالثة أنهم كانوا « عشرة عمال » وقال عنهم ملك الروم إنهم « يعدلون مائة » .

فهناك خلاف إذن في عدد العمال ، وهناك خلاف أيضاً في جنسيتهم .
 وجدير بنا أن نذكر أن السهمودي يكاد ينفرد بذكر رواية القبط ، ولم يشاركه في نقلها كثير من كبار المؤرخين والثقات الذين نقلوا تاريخ مسجد المدينة ودقائق تطوراته ، كابن سعد ، واليعقوبي ، والطبري ، والبخاري ، وابن بطوطة وغيرهم .
 وإذا افترضنا جدلاً صحة رواية السهمودي ، وسواء أكان القبط يشتغلون في بيت الصلاة ، أم في بهو المسجد ، فانهم كانوا فعلة لحسب ، يشتغلون تحت إشراف رئيس مسلم اسمه صالح بن كيسان . وليس من الجأز أن فعلة من الأجانب يعدلون من نظام أول مساجد الإسلام وأكثرها اعتباراً . وأعود فأسجل مرة أخرى ما ذكره السهمودي نفسه من أن عمر بن عبد العزيز ، لما بلغ هدم محراب مسجد المدينة « جعل لا يزرع حجراً إلا وضع مكانه حجراً » . فمن المغالاة حقاً أن نحمل نصوص التاريخ أكثر من طاقتها ، وأن نمزج الخيال بالحقيقة ، وأن نزع بالقبط فيما هم براء منه .

ويكفي كل هذا للدلالة على أن ما يستخلصه علماء الآثار المستشرقون من رواية السهمودي زائد عن الحد . فان اشتغال صناع في بناء مقدس لا يؤدي حتماً إلى إحداث عنصر فيه ، وخاصة إذا كان هذا العنصر رئيسياً في نظام هذا البناء ؛ إذ أن المحراب ، كما يعترف المستشرقون أنفسهم ، أكثر مراكز المسجد تقديساً ، وأولاها بالإجلال ، حتى إن لفظ المحراب يطلق مجازاً على الصدر في المجلس ، فيقال في اللغة المحراب أشرف المجالس ، وهو حيث يجلس الملوك والسادات والعظماء . ولعله اختير في الإسلام لما كان يعبر به في الجاهلية عن أسمي المباني ، تلك التي أقيمت خصيصاً للملوك .

ولنعد إلى حديث السيوطي ، وإلى ما زعم فيه من علاقة المحراب بمذبح الكنيسة ، وإلى ما قد يصل بين العنصرين مبني ومعنى . والثابت أن النقل والاقتراب في الفنون وفي العمارة ، لا يمان عفواً ، بل إن الحاجة هي التي تدفع الناقل إلى نقل ما يريد أن يستعين به في قضاء حاجته ، والغاية هي التي ترسم للمقتبس طريق ما يرجو به تحقيق غايته . والغاية أو الحاجة في هذا أهم من

الأصل ، والفكرة أبدى من الصورة . فالفكرة التي تنقل الشكل لغير ما وضع له ، أحق بالتقدير من الشكل نفسه . والثابت أيضاً أن لمذابج الكنائس وظيفه غير التي لمحاربب المساجد ، وأن هيكل الكنيسة وضع لغير ما وضع له محراب المسجد ، وأن كلا منهما يؤدي في بنائه وفي موضعه وفي شكله غاية مختلفة ، متماينة ، منعقدة الصلة والموضوع بينهما . وإذا كان اختلاف الغاية لا يستبعد فكرة الاشتقاق ، فهو على الأقل يفرق بين الفضل في الاقتباس ، والبداهة في النقل . والمعروف قطعاً ان المعنى الذي يتركز في هيكل الكنيسة أو في مذبحها بعيد كل البعد عن احتمال إيحاء المعنى الذي يتركز في المحراب .

أما في ميناه ، فالمحراب يختلف شكلاً عن هيكل الكنيسة . فهذا فناء كبير في صدر الكنيسة ، يتسع على الأقل لمنضدة توضع عليها معدات الشعائر والمراسيم ، وفناء كبير ، يذهب القائم بهذه الشعائر ويحجى فيه ، في فسحة من الزمن والمكان . أما المحراب ، فهو جوفه في حائط تضيق بغير الإمام ، بل تكاد تضيق بالإمام نفسه في ركوعه وسجوده وجلوسه . فليس في مبنى العنصرين ، المحراب والهيكلي ، كما لم يكن في معانها ، صلة أو ارتباط .

ومع هذا فما الذي كان يدعو بناة المساجد أن يقفوا في تأمل أمام هياكل الكنائس ، فيرسموها ويحوروها ويصغروها ، ويخرجوا منها بناء قريباً لها أو بعيداً عنها ، وشيئاً لا صلة له بها وهو المحراب ؟ ما الذي كان يدعوهم إلى هذا وفي الصحارى التي عاشوا عليها مغارات توحى فتحاتها بأشكال المحاربب ، وفي الجبال التي اجتازوا بها ، في الشام وسيناء وإفريقية ، فجوات كأنها محاربب قطعت في جدران القبلة ، وفوق هذا وذاك كانت آثار الرومان والفرس تمتد وتنتشر في البلاد التي فتحها العرب ، وكانت تعرض على بناة المساجد طاقات صغيرة ضيقة مجوفة لا تختلف في شيء كثير عما اتخذته أشكال المحاربب ، وكانت هذه الطاقات فارغة تبين أوضاعها جملة وتفصيلاً ، أو كانت تظل تمثالاً واقعياً كأنه الإمام يتوجه إلى المصلين قبل أن يولى وجهه نحو القبلة للصلاة . بل إن الباحث قد يجد إلى هذا في الكنائس المسيحية الأولى نفسها شكلاً أقرب من هياكلها إلى إيحاء شكل المحراب . غير أننا سنرى بعد قليل أننا لا نستطيع أن نجزم على ثقة ويقين بأصل معمارى أجنبي للمحراب ، وأنه ليس في مراجع التاريخ ، وليس في آثار العمارة التي سبقت الإسلام ، تفسير صحيح لشكله .

وكل هذا يدلنا على أن الحديث الذي أثبته السيوطي ، حديث ينقصه السند ، ويرفضه النقاش . وكذلك يدلنا على أن الحقائق تنقض ما ذكره السهمودي ، أو أن الشك ، على الأقل ، يحوم حول روايته . وإلى هذا فقد عاش هذان المؤرخان في عصر جد بعيد عن الحوادث التي ذكرها ، والتي لم يشر إليها مؤرخ آخر غيرها أقرب منهما إليها ، وأجدر منهما بالثقة ، بل ينقصها كثير غيرها من المؤرخين . ولهذا فإن الادعاء باشتقاق الحراب من الكنائس لا يقوم على حجة ثابتة ، ويفتقر إلى البرهان ؛ فالحقيقة تنكره قطعاً ، والتاريخ يرفضه بتاتا .

أقول هذا في ثقة لا يتطرق إليها فتيل من الشك ، وأقوله في قوة تستند على دعيمة من البناء ، معنى لا مجازاً ، دعيمة ظلت راكزة في الأرض منذ أقيمت سنة خمسين للهجرة ، وحتى يومنا هذا ، وأقوله في صدق أقره التاريخ منذ أكثر من ألف عام ، ولم توهنه بعد ، حجة جدية ، أو ادعاء قويم .

يخيل إلي أن ما انتهيت إليه من نقض حديث السيوطي ، وما قيل في بدعة المحارب ، يتطلب المزيد من البحث لإيضاح أمرين : يتصل أحدهما بنشأة حديث السيوطي ، ويتصل الآخر بنشأة الحراب نفسه .

والواقع أن الحيرة تأخذنا حقاً في إدراك السبب الذي حمل السيوطي أو محدثه ، على خلق حديث مثل الذي شغلنا ، مع ما فيه من اختلال واضح ، وركاكة ثابتة . وأخشى أن يخرجني البحث عن حلقة التاريخ وموضوع الآثار ، ويجرني إلى دراسة في فقه الدين والتفسير لا قبل لي بالمضى فيها . ولكنني أعتقد عن يقين أن تطورا فقهيا قد أصاب علماء الدين في القرنين التاسع والعاشر الهجري ، وأن أحوال مصر الاجتماعية والسياسية قد دفعت كثيرا منهم إلى نوع من الزهد ، ودفعت البعض الآخر إلى التحايل على إنكار صلاة الجماعة ، وإلى وضع الأحاديث وضعا يمكنهم من إثبات ما كانوا يسعون إليه ، أو ينزلهم مكانة أسمى من العلم بما كان زملاؤهم به جاهلين ، حتى إن أحدهم ، وهو ابن الحج ، ذكر في « المدخل » ، أن الحراب أقل أجزاء المسجد جلالاً ، وحرماً على الإمام أن يأخذ مكانه فيه ، مع ما في هذا من خلاف لما أجمع عليه الناس من تقديس الحراب . والظاهر أيضاً أن علماء الدين حينئذ ، بل فيما قبل ذلك بزمن طويل ، كرهوا المغالاة في زخرفة المساجد ، فإنها فيما ظنوا تشغل المصلين عن الصلاة ،

ورخرفة المحراب تشغل الإمام ، وهذا أدهى وأكثر خفشا ؛ فلم ير السيوطي حرجا من أن يشبه المحراب بالمذبح ، من حيث بهرجهما ، ومن أن ينهى عن هذه الزخرفة ، ويجعلها ، كما رأينا ، من أشرط الساعة .

يتفق علينا البحث في أصل المحراب وفي فكرة إنشائه . ويجدر بي أولاً أن استعرض رأيا في اللفظ نفسه . فقد كان المحراب لفظاً يستعمله العرب قبل الإسلام للدلالة على بناء أقيم لملك من الملوك . وبهذا المعنى جاء ذكر هذا اللفظ في أشعار امرئ القيس والأعشى وفي المفضليات . وهو في القرآن يؤدى معنى آخر لا صلة له بالقبلة أو بالمسجد . وهو على كل حال مصطلح لجزء من البناء ، غرفة كان أو قصرا . وقيل في كتب اللغة محراب المصلّى مأخوذ عن المحاربة ، لأن المصلّى يحارب الشيطان ويحارب نفسه بإحضار قلبه . وهذا تفسير ، إن أرضى علماء الدين ، لا يرضى المؤرخ وعالم الآثار . وقد ذكرت في سياق الحديث عن محراب عقبة في القيروان ، أنه حين حدد اتجاه القبلة ، ركز لواءه في مكانها ، وأبان موضع المحراب من مسجده . فهل كان هذا اللواء حربة من الحراب ، فلما ركزها في ذلك الموضع ، سماه القوم بالمحراب ، اشتقاقا من الحربة ، فسارت هذه الكلمة في اللغة للدلالة على مركز القبلة ، لست أدري أيجوز هذا التفسير لغة ، ولست أجزم بصحته ، وهو على كل حال موضوع بحث جدير بعناية علماء اللغة .

أما نشأة المحراب باعتباره عنصراً معمارياً من بناء المسجد ، فترجع في نظرنا إلى ابتكار أمّته الضرورة ، مثله في ذلك مثل المسجد نفسه ، الذى تكونت نظمه ، وتشكلت هيئته من واجبات الصلاة وفروضها وسننها ، ومن عادات العرب وطبيعة بلادهم . والمحراب ينسجم شكله مع شكل المسجد ، بل هو المركز الذى تتفرع منه خطوطه ، وتتشعب منه اتجاهاته .

وإذا كان التاريخ لا يرشدنا إلى المصدر الذى اشتق عقبة منه شكل محرابه في القيروان ، ولم يبين لنا كيف ابتكر هذا الشكل ، فقد لانعدم حيلة في استنباط الرأى وتحليل الفكرة .

والمحراب لا يقصد به الدلالة على اتجاه القبلة فحسب ؛ إذ لو كان الأمر قد اقتصر على هذا لانخذ المحراب أى شكل آخر ، فلم يكن هنالك ما يدعو إلى

بدعة المحارب

نجويفه ، وكان يمكن أن يستعاض عنه بأى شيء يكون منه ميزة للقبلة ، كقطعة من الحجر أو لوحة بارزة ، أو علم ، أو ستار ، أو جذع نخلة ، أو وتد مثل ذلك الود الذي كان يتكئ عليه الرسول في محرابه الأول . ولهذا فليس فيما اتخذته المحراب من شكل مجوف غضاضة أو بدعة أو شرط من أشرط الساعة .

غير أنى أعتقد أنه كان هناك فوق هذا سبب قوى آخر دعا المسلمين إلى اتخاذ هذا الشكل المجوف ، أو إلى ابتكاره . فإننا نعلم أن المصلين كانوا ، وما زالوا ، يصطفون للصلاة في المسجد صفوفاً مستقيمة موازية لجدران القبلة ، مؤتمنين بإمام منهم ، ونعلم أن الإمام يقف منعزلاً في صدر المسجد ، ويحتل من بيت الصلاة لنفسه وحده ، صفّاً طويلاً بأكمله . فإذا أدركنا أن الصف الواحد في مسجد القيروان يتسع لمائتين من المصلين وأن المصلين كان عددهم وأفرأ حتى كانوا يملأون بيت الصلاة وهو المسجد وزيادته ، بل كان يضيق بهم كل هذا فيصطف الكثیر منهم للصلاة خارج المسجد في قاعة الطريق — إذا علمنا كل هذا أدركنا أنه كان من الحيف حقاً أن يحتل الإمام صفّاً واحداً لنفسه ، ويدفع بمائتين من المصلين خلفه إلى صحن المسجد يؤدون صلاتهم في غير مأوى من القیظ أو المطر أو البرد .

وفي رأينا أن هذا كله لم يغب عن عقبة وأصحابه ، وأنهم ابتكروا المحراب المجوف حتى يدخله الإمام في صلاته ويتسع الصف الذي كان يحتله هو وحده لمائتين غيره من المصلين ، فينفذوا من العراء إلى بيت الصلاة ، ويستظلوا بعروشه .

فكرة المحراب هذه بسيطة بحيث لا تتطلب ، فيما أرى ، عناء البحث في صلتها بالمذابح ، ولا يستقيم معها الحديث الذي طلع به علينا السيوطى عن « بدعة المحارب » .

احمد فكري